المجلة السياسية والدولية

اسم المقال: ثقافة التسامح وبناء الدولة
اسم الكاتب: د. ماجد علي العنبكي، د. فجر جودة النعيمي
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/2282
تاريخ الاسترداد: 2025/05/07 12:25 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من الصفحة الخاصة بالمجلة السياسية والدولية على موقع المجلات الأكاديمية العلمية العراقية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

ثقافة التسامح وبناء الدولة

د. ماجد علي العنبكي* د. فجر جودة النعيمي**

مقدمة

اذا كنا لا نستطيع ان نتعلم من البشر فلننظر للمملكة النباتية فكما تقول الأساطير السنسكريتية (الهيتو باديشا) "الشجرة لا تحجب ظلها حتى عن الحطاب " الذي يريد ان يقتلعها من الجذور، صحيح ان الأشجار لا تعقل ولكن حكمة الأسطورة تدعونا رمزيا لان نمتثل لقوانين الطبيعة، فالأشجار الكبيرة قد تمنع وصول الشمس للاشجار الأصغر ولكنهما معا أوجدا قانونا للتعايش والا كان يمكن ان تنقرض كل الأشجار الصغيرة التي تعيش الى جوار الأشجار الكبيرة ولولا قدرة الأسماك على التكيف والتعايش مع المخلوقات الأكبر حجما لما وجدنا سمكة في بحر او نهر.

ونحن شركاء المملكة الحيوانية والنباتية على هذا الكوكب ينبغي ان نتعلم ان البلدان لا تبنى بالكراهية، وما لم نتعلم كيف نحب بعضنا فإننا سنبقى اصغر من كل المخلوقات على الارض.

التسامح ليس ان نعفو عن من أساء لنا فقط، فذلك يحدث حتى بين القطط، ولكن ان نحارب الإساءة بالإحسان، أن نغفر لأولئك الذين دفنوا بعض أهلنا أحياء، لأولئك الذين مزقوا كتب أطفالنا وشردوهم، ولأولئك الذين أساؤوا لنا مرة واخرى، فهذه هي مكارم الاخلاق التي ينبغي ان نطلق سراحها لكي تكبر وتسود وتزدهر، فاذا فعلنا ذلك عندها يمكن ان نعود لطبيعتنا الطيبة التي لم تدنسها الأهواء والمصالح السياسية والدينية والعرقية، وعندها أيضا يصبح بمقدورنا ان نتقاسم كسرة الخبز مع جيراننا حتى لو كانوا من طائفة أخرى او دين اخر او كوكب اخر، وان نشعل الشموع

* د. ماجد علي العنبكي، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع
** د. فجر جودة النعيمي، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع

ونلبس السواد من اجل مصيبة بعض أهلنا ولو كانوا من غير ملتنا او حزبنا او حارتنا، كما فعل اهل الاعظمية في شموع المواساة مع اهل الكرادة.

لا نحتاج ان نسأل المحتاج من أي طائفة او عرق او دين لكي نقدم له العون. اعتقد جازما اننا نستطيع ان نشارك بعض أهلنا وشركاؤنا في الوطن أزماتهم وأحلامهم وافراحهم دون الحاجة للبحث عن سبب، فعندما تدخل الأسباب تدخل الطائفية وتدخل العنصرية وتدخل الأهواء، وتلك أمراض تجاوزتها الثقافات الأقل شانا من ثقافتنا.

الوطن اكبر من عدد افراده، وابقى من طوائفه وأديانه واعراقه، ولذلك يجب ان نحتمي بعباءة الوطن لا بعباءة الطائفة والعرق والحارة، لان الوطن ليس لنا وحدنا انه لنا جميعا، لاولادنا واحفادنا، فلماذا نورثهم الكراهية ونحن نستطيع ان نعبرها الى المحبة. ثم ماذا يمكن ان يقول عنا احفادنا بعد مئة سنة او خمسمئة سنة هل تقاتلنا لأننا نحب عليا وهم يحبون عمر، او نحب محمد وهم يحبون يسوع، او يحبون أبو حنيفة ونحن نحب جعفر. اذا فكرنا قليلا وتخلصنا من جنون التحزب والتخندق السياسي والديني والعرقي عندها سنعود الى طبيعتنا السمحة، الى حيث كنا نقتسم الهم والخبز والفرح، وعندها يمكن ان يأمن الجار جاره ويدافع عنه من غير ان يعرف هل هو من هذا الفصيل ام من ذاك.

هذه ليست رسالة في التسامح فقط، انها رسالة لكي نفهم اننا لسنا وحدنا في هذا الوطن، معنا شركاء لهم اديان واعراق وطوائف لهم مطامح وأحلام واوجاع مثلنا تماما، فهل نستطيع ان نرتفع بانسانيتنا الى مستوى " مكارم الاخلاق" التي جاءت بها رسالة آخر الأنبياء؟

مشكلة البحث

التسامح ليست مشكلة، المشكلة هي كيف نصل الى التسامح، كيف نوقف الضغينة والكراهية والتباعد والتنافر، كيف نحيا معا دون ان ينام احدنا بنصف عين وهو خائف، كيف نتخلى عن خناجرنا المخبأة تحت الوسائد وكيف نتجنب التعامل بوجهين، هذه هي المشكلة.

ان الاعتدال والتسامح والوسطية وقبول الاخر تعطي حياتنا معنى اخر فيه كثير من الامل وقليل من الالم، وتجعل الحياة اجمل مما هي عليه، اما اذا سادت مفاهيم اخرى مناقضة لهذه المفاهيم فمعنى هذا ان هناك مشكلة والمشكلة لها أسباب، لذلك نحن امام خطريتعلق بانقسام وتناحر مكونات المجتمع لدرجة يصعب معها الوقوف على الحياد. وهنا يدخل دور العلم في تحديد وتشخيص المشكلة والعمل على ايجاد بعض الحلول المناسبة لها .

اهمية البحث

يكتسب البحث أهميته من أهمية المشكلة ذاتها فاذا كانت المشكلة فردية او عائلية او مؤسسية بسيطة وقابلة للحل بايسر الطرق فان المشكلة ربما لا تستحق بحثا، ولكن اذا كانت المشكلة تشكل ظاهرة، وتمتلك قدرا من الديمومة وتهدد استقرار وبناء الهيئة الاجتماعية فإنها ولا شك تستلزم بحثا منهجيا يستخدم كل أسلحة البحث العلمي وادواته ليس فقط من اجل التعريف بطبيعة المشكلة واتجاهاتها ودرجة خطورتها وانما أيضا البحث عن الوسائل التي تقلل مخاطرها. ومشكلة انقسام المجتمع الى أحزاب وطوائف واجندات مشبعة بروح العداء والكراهية من شانها ان تقلل فرص التفاعل الاجتماعي الذي يقود الى التكامل والتناغم والتعاون. ان مشكلة تخندق ابناء المجتمع العراقي وراء الطوائف والمذاهب والمناطق التي أدت الى الاقتتال المميت عبر اكثر من عقد من الزمان جديرة بان تدرس من اجل حفظ الدماء والارواح والممتلكات ، ومن اجل خلق مناخ ملائم للتعايش السلمي الذي يحفظ وحدة وبناء المجتمع ككل.

هدف البحث

يهدف هذا البحث الى تسليط الضوء على ظاهرة العنف والعنف المضاد التي عصفت بالمجتمع العراقي وكلفته الكثير من الدماء والأموال ، في محاولة لتشخيص نقاط الضعف في صفات الشخصية العراقية وابعادها عن التطرف والكراهية والتعصب وكل مايسيء اليها من اجل ان يعيش ابناء المجتمع بحرية وسلام . والوصول الى نتائج

من شانها المساهمة في حماية ارواح ابناء المجتمع عن طريق نشر ثقافة المحبة والتعايش وايصال صوت اهل الاختصاص لصناع القرار الاجتماعي والسياسي والديني.

منهجية البحث

تعتمد البحوث الانثروبولوجية على منهج الملاحظة، الملاحظة بالمشاركة واستخدام المخبرين وربما تلجأ لاستخدام المقابلة ولاستبيان كأدوات لجمع البيانات وتصنيفها وتحليلها[١] وفي هذه الورقة اعتمد البحث على الملاحظة بالمشاركة، ومتابعة الاحداث ميدانيا عبر مصادر متعددة منها وسائل الاتصال والملاحظة الميدانية.

ومن اجل تحقيق أهداف البحث فقد تم تقسيم البحث على المحاور الآتية:

أولاً: التمايز في الحياة الاجتماعية

الطائفية والعنصرية والمناطقية كلها شكل من اشكال التمايز الاجتماعي **social discrimination**، ومفهوم التمايز قد يكون إيجابيا وقد يأخذ شكلا عدائيا، فالبشر عموما يتمايزون على أساس العمروالجنس (الجندر) واللون والعرق والدين ومكان الولادة، ومستوى المعيشة ومثلها كثير، وهذا النوع من التمايز يطلق عليه باللغة الإنكليزية **inequality** وهو يختلف عن التمييز **discrimination** . ان الأرضية التي نتمايز فيها في ضوء مصطلح ال **inequality** لا تعني في الغالب التمييز ضد اشخاص او جماعات معينة، بل الإشارة الى انتماء الناس جميعا دون ادخال عامل القيمة او التفضيل بينها، وهذا الامر لابد منه في كثير من الحالات، فمثلا التمييز بين الناس على أساس التأهيل العلمي في القبول في الجامعات، والعمل، مثل هذا التمايز مقبول، ولكن التمييز في القبول على أساس العرق او الدين او الجنس او العمر او الطائفة يعتبر غير مقبول لدى كل الشعوب المتحضرة وهو ما يعنيه مصطلح **discrimination**.[٢]

ومع ذلك هناك كثير من المجتمعات متعددة الأجناس والاديان والطوائف مازالت تمارس أنواعا من التمييز والتهميش والاقصاء لأسباب غير منطقية، وقد يأخذ

---

(1) May, Tim (2001) Social research: issues, methods and process, 3rd ed, Buckingham, Philadelphia, the open university press., P.75.
(2) Roberts K, (2009) Key concept in sociology, NY, Palgrave, P.62.

هذا النوع من التمييز شكلا عنيفا او مضايقات تصل حد الاضطهاد، وقد تكون ردود الأفعال إزاءه عنيفة أيضا، ومثل هذا التمييز كما يقول "بلتون" من الصعب قياسه، ولكنه يخلق توترات اجتماعية قد تصل حد الاحتراب، او التخريب او التخندق الطائفي والعرقي والديني،[٣] ، كما حدث في العراق بعد الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣، عندما اندلعت موجات من العنف والعنف المضاد بين مكونات الشعب العراقي تحت مسميات طائفية وعرقية ومناطقية، سببها المباشر الشعور بالتهميش والاقصاء ودوافعها غير المباشرة سياسية مصلحية على الاغلب، ومجالها غياب الدولة ومؤسساتها التي غابت فيها وسائل الضبط الاجتماعي الرسمي، فحلت الطائفة والعشيرة والحزب محل الدولة، وصارت المصالح اقوى من المبادئ، وشذاذ الآفاق اقوى من الشرطة، فنشط السعاة وذوي الأهواء والمصالح وتجار الحروب وباعة الضمير، وانتشرت الرشوة والمحسوبية والنفعية، فاستشرى الفساد في كل مفاصل الدولة والمجتمع لدرجة يصعب السيطرة عليها، وكان من نتيجة ذلك ان سادت شريعة الغاب وتغيرت منظومة القيم تغيرا خطيرا لدرجة ان اللص صار "سبع" وان المرتشي صار " شاطر" وان القاتل صار "ثائر" وهكذا تحولت معايير المجتمع بين ليلة وضحاها من اقصى اليمين الى أقصى الشمال.

يقول جونسون **Johnson** ان عدم المساواة هو نوع من أنواع الانحياز العرقي او الديني او الطائفي وان التمييز **discrimination** هو الوجه العملي لغياب العدالة . واذا كان الانحياز يقوض علاقات التكامل الاجتماعي عن طريق تقسيم المجتمع الى جماعات متنافرة، متعارضة وربما متصارعة فانه في الوقت ذاته ذو طابع وظيفي لأشخاص ينتمون لجماعة "نحن" **in-group** التي تضفي على نفسها كل الفضائل بينما تضفي على جماعة "هم" **out-grouped** كل الرذائل، ولعل ذلك يحقق فائدة نفسية للأفراد لكي يلقوا باللائمة على الجماعة المناوءة، ولعل التمييز كما

(3) Bilton T, Bonnett K, Jones P, Lawson T, Skinner D, Stanworth M and Webester A, (2002), Introductory Sociology, NY, Palgrave, P.20.

يقول روبرتس"ربما يكون نتيجة للانحياز، ولكن ذلك لا يحدث بالضرورة لان التمييز له أسباب أخرى"[٤]

وبناء على ما تقدم فان التمييز على أساس الهيمنة او التهميش له نتائج وخيمة على بنية وتركيب المجتمع وعلى وظائفه أيضا، ولذلك اعتبرت الممثلية العليا للأمم المتحدة التمييز بين الناس على أساس اللون او العرق او الهوية او الاصل، عملا غير شرعيا وغير أخلاقيا أيضا.[٥]

ثانياً: العنف والعنف المضاد

العنف شكل من اشكال السلوك العدواني، يستهدف الحاق الاذى بالطرف الاخر، والسلوك العدواني بأبسط أشكاله سلوك غريزي ربما ينتج عن استثارة ولكن في أشكاله الأكثر تعقيدا كما يقول باندورا هو سلوك متعلم **Bandura 1973**، ويظهر جليا عند الاستفزاز، وفي ذلك[٦]:

قد يبدو واضحا اننا نتصرف بعدوانية اذا ما تعرضنا للاستفزاز المباشر، حتى عندما تكون طريقة الاستفزاز معتدلة. التجارب المختبرية أظهرت ان ذلك يشمل الاستفزاز البدني واللفظي أيضا، وقد يستعيد المرء حادثة قديمة للاستجابة العدوانية على مزحة او او سخرية، وفوق هذا فان الاستفزاز يمكن ان يتصاعد بسرعة ليتحول الى معركة شرسة بالأيدي والاسنان والحجارة، كما يحدث في في شجارات البارات والملاعب الرياضية واحيانا في المظاهرات.

الحق ان الاستفزاز مثير مهم من مثيرات السلوك العدواني، غير ان ذلك لا يقود دائما لنفس النتائج ما لم يكن لدى الفرد او الجماعة استعداد للاستجابة للمثير، وقد لاحظ الباحثان درجة استثارة الجماعات الطائفية المتناحرة في العراق، والتي وصلت الى حد الاحتراب في ظروف غياب القانون والنظام وتحت تأثير شخصيات

---

[4] Roberts K, (2009) Key concept in sociology, NY, Palgrave, P.32.
[5] Nobbs J, Hine B, and Flemming M, (1980) , op. cit., P.80.
[٦] النعيمي، فجر جودة (٢٠١٦) علم النفس الاجتماعي: دراسة لخفايا الانسان وقوى المجتمع،، بغداد، دار اوما، ص٢٤.

سياسية ودينية لها مصلحة في تجنيد البسطاء ودفعهم قسريا او طوعيا نحو تدمير بعضهم.

ان عملية التدمير المنظم التي بلغت أوجها في الأعوام ٢٠٠٦– ٢٠٠٧– ٢٠٠٨ وازهقت الآلاف الأرواح ممن لا ناقة لهم فيها ولا جمل، كانت نتيجة التحريض الذي اخذ شكل خطب حماسية وتوجيهات دينية في المساجد والمدارس والتجمعات، وبما اشعر الاتباع ان وجودهم كله مهدد بالفناء وذلك وحده دفع حتى الأطفال لحمل السلاح من اجل البقاء، فيما يقف خلف هذه الدعوات من الطرفين تجار احترفوا المراهنة على دماء الناس وارواحهم وممتلكاتهم.

ثالثاً: المواطنة مع غياب الوطن

ان الشعور بالمواطنة لا يأتي بالصدفة، فهي ثقافة تراكمية تمنح الافراد والجماعات هوية افتراضية او متخيلة على حد تعبير أندرسون[٧] وهي أكثر الأشكال الثقافية انفعالية **emotive** وقوة وضبابية ومثيرة للجدل في ان واحد ، فمثلا هناك كلام كثير عن النزعة البريطانية، او طريقة الحياة الإنكليزية ، والسؤال كيف يمكن ان يكون هذا الكلام مناسبا للاسكتلنديين او سكان ويلز وهي مقاطعات رئيسية في المملكة المتحدة البريطانية[٨]، ومثلها لدينا حيث يكثر الكلام عن العروبة فكيف يناسب ذلك الأكراد، وربما اخذ الأكراد ذلك ذريعة للشعور بعدم الانتماء للعراق طالما ان أهله يرددون صباح مساء تعابير من شانها وضع الحواجز النفسية بين مكونات الوطن الواحد.

في كتابه "هيجل والدولة"[٩] يعتقد الفيلسوف الألماني هيغل أن الدولة هي كل شيء وهي الاله في الارض والفرد لاشيء . وبغض النظر عن الاختلاف او الاتفاق مع هذا الاعتقاد فان للدولة والوطن اهمية كبرى بمقاييس الافراد والجماعات ذلك ان الوطن لا يعني المكان الجغرافي وحده انه الجغرافية والتاريخ والناس والحقوق

---

[7] **Anderson B, (1983) Imagined communities, London, Verso, P.22.**

[8] **Bilton T, Bonnett K, Jones P, Lawson T, Skinner D, Stanworth M and Webester A, (2002), op. cit., P.25**

[٩] اريك وايلي ،(٢٠٠٨)هيجل والدولة، ترجمة نخلة فريفر ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت،ص ٢٥

والواجبات ، انه امس واليوم وغدا ومن ذلك يكتسب الوطن قدسية، ومن قدسيته يتبلور الولاء والحب والانتماء.

اما الحال في عراق ما بعد الاحتلال فقد تبدل تبدلا خطيرا، حيث انقسمت الولاءات وتعددت والسبب لايعود للانقسام والتحريض الطائفي والعرقي والديني فقط ولكن اختلال ميزان الحقوق والواجبات وتعثر الدولة في توفيرالحماية للوطن والمواطن ، وغياب الأمن والنظام ، وعجزها عن توفير الأمن والخدمات الضرورية واستشراء الفساد المالي والإداري وغياب العدالة، كل هذه الأسباب أضعفت الشعور بالمواطنة ولسان حال الناس يقول "اذا كنت اشعر بالاهانة كلما راجعت دائرة من دوائر الدولة ، واذا لم استطع الحصول على فرصة عمل، ولا أتمتع باي حقوق او امتيازات او خدمات كفيلة بتحقيق الرضى المادي والنفسي، فاي قيمة للوطن"

وبسبب التقدم في تكنولوجيا المعلومات صار بمقدور المواطن ان يقارن وضعه بوضع مواطنين في بلدان أخرى ويعرف الفارق الرهيب بينه وبين نظرائه في اقصى بقاع الأرض، وقد شجع ذلك ملايين العراقيين للهجرة الخارجية بحثا عن فرص افضل للحياة، اما الذين لم تتح لهم الفرصة للهروب من سجن الوطن فقد استبدلوا ولاءاتهم لمرجعيات وعشائر وقبائل واحزاب وطوائف همها الاول الحصول على الثروة والقوة. بيد ان المواطن لا يملك خيارات كثيرة فإما الولاء للوطن اوالولاء للعشيرة والطائفة والعرق ، وطالما ان الدولة ضعيفة وانها لا تستطيع ان تقدم له الشعور بالأمن فانه سيلجأ للعشيرة والطائفة والعرق. ان ضعف الشعور بالمواطنة امر خطير للغاية ليس فقط على المواطن ذاته وانما على امن وسلامة المجتمع ككل، وقد ادى هذا الضعف في المواطنة الى ان ٥٠٠ مرتزق كانوا قد هزموا خمسين ألفا من الجنود والضباط النظاميين الذين هربوا في معركة الموصل الوهمية، ليس لان ولائهم الوطني ضعيف فقط ولكن لان الخلفية الاجتماعية الداعمة لهم غير متوفرة، ولان الهرب لم يعد قيمة مخجلة في ضوء تغير منظومة القيم الاجتماعية الأساس

رابعاً: الدين والسياسة

الدين والسياسة عوالم مختلفة متناقضة وربما متنافرة ولكنهما على طول التاريخ وعرضه يتلاقحان على طريقة الأضداد والانداد، لكل منهما أصول وقواعد مستمدة من خبرات شديدة التعارض، فالدين سلطة روحية غير طبيعية مقدسة sacred, spiritual, supernatural power حقائقها غير قابلة للاختبار، وبحسب هارالامبوس وهولبورن[١٠] هي الاعتقاد بقوى غير طبيعية لها تأثيرعلى الحياة وسيطرة على العالم، اما السياسة فإنها في ابسط تعريف لها انها ممارسة السلطة exercise of power المستمدة من علاقة رموز السلط بالمجتمع، انها غير مقدسة وغير روحية ما لم تختلط بالسلطة الدينية[١١].

لقد ايقض الناس مفكرين بارزين منذ القرن السادس عشر من امثال هوبس، فولتير، جان جاك روسو، توماس الاكويني وباروخ سبينوزا وصولا الى ماركس وفريد ودوركهايم ودفعهم للتصدي للسلطة الثيولوجية واثمرذلك تحت الضغط الشعبي فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، ذلك ان تدخلات السلطة الدينية في الحياة الاجتماعية كان لها تأثيرات مدمرة، منها بيع صكوك الغفران للأثمين من ملاك الأراضي الظلمة ولصوص المال العام والقتلة ممن يستطيعون ان يدفعوا لكي يحجزوا أماكنهم في الجنة، وكانوا على مدى قرون يقودون حروبا دينية وطائفية من اجل الحصول على الثروة والقوة بغض النظر عن ملايين الضحايا الذين يذهبون ولا يرجعون، وكانوا أيضا يبررون ظلم الملوك والاقطاع من اجل الحفاظ على سلطتهم، باختصار كان الدين برموزه الكهنوتية على مدى قرون ممر دامي لذبح الجنس البشري وهذا هو بالضبط ما دفع كارل ماركس لوصف الدين بانه أفيون الشعوب، ذلك انه يعطي الناس صورة كاذبة عن لمجتمع[١٢] ، وفي هذا السياق يقول رجل دين عراقي على مرأى ومسمع ملايين الناس وهو يتحدث وسط تجمع غفير " اقسم بالله ان من اكل من هذه الحلوى (وكان يحمل بعضا منها في يده) لن يعذبه الله وسيدخل الجنة" . لقد نجحت دعوات فولتير

---

[10] Haralambos M, & Holborn M, (1993) Sociology, Terms and Perspectives, London, Collins Educational, P.15.
[11] Bilton T, Bonnett K, Jones P, Lawson T, Skinner D, Stanworth M and Webester A, (2002), op. cit., P.25
[12] Haralambos M, Smith F, O'Gorman J and Heald R, (1991) Sociology a new approach, Oxford, Alden Press

وفرويد ودوركهايم في إنقاذ الأمم الغربية من السلطة الكهنوتية والتحول نحو السلطة السياسية المدنية[١٣] . فهل نحتاج الى فولتير او ماركس؟

في مطلع التسعينات من القرن الماضي اجتاحت العالم العربي والاسلامي موجة دينية واسعة نتيجة شعور الناس بظلم النظم العسكرية والدكتاتوريات التي مارست أنواعا من القهر والتمييز على أسس حزبية ومناطقية وطائفية، وعندما يعجز الناس عن مواجهة الظلم والافقار والتعسف فانهم يبحثون عن بطل منقذ، وحين لم يجدوا البطل لم يكن امامهم الا البحث عن منقذ ذو قوة غير طبيعية، وهذا كان دائما ديدن الانسان منذ الازل.

دخل الاسلام السياسي المعركة ليقوم بدور المنقذ بيد ان التجربة التي عاشتها أوربا القرون الوسطى تتكرر في عالمنا العربي الاسلامي مع فارق ان السياسيين من الكهنة واشباه الكهنة ومريدي الكهنة لهم امتدادات وادوار مرسومة لاشاعة الفساد ونهب الثروة القومية والابقاء على البنى التحتية في حالة تدمير تام، والى جانب كل ذلك كان المنتفعون وتجار الدم يتحركون باشياعهم وطوائفهم نحو التناحر والاحتراب ، فانقسم المجتمع بتأثير ذلك الى سنة وشيعة، ثم بدا السنة ينقسمون الى إجزاء وكذلك الشيعة، وقد لعبت بعض الرموز الدينية السياسية أدوارا خطيرة في التجزيء والتفتيت والتفريق، من اجل الإبقاء على حالة التنافس بين الأجزاء فيما ينعم لصوص المال العام وأصحاب المصالح والاهواء بالامن حتى حين.

خامساً: حدود التسامح : من يتسامح مع من؟

في البدء ينبغي ان نعرف ان التسامح له حدود، فالتسامح مع المجرم معناه التفريط بحقوق المجتمع، واذا كانت توجهات ادانة المجرمين على اعتبار انهم يمتلكون كامل المسؤولية عن افعالهم تنظر للوجه الاخر للمشكلة من زاوية ان المجتمع الذي اخل بمبدأ اشباع حاجات المجرمين يتحمل هو الاخر كامل المسؤولية عن الجرائم. معادلة خطيرة منها نستطيع تبرير أي عمل جرمي ومنها يمكن ان نعاقب أي فعل جرمي حتى وان لم يكن مقصودا او بدافع الحاجة، ولكن هل تستطيع الهيئة

(13) Broom L, Selznick P, and Darroch D B, (1981) Sociology: a text with adapted readings, NY Harpper & row Publishers, P.12.

الاجتماعية ان تبرر سلوك مجرم يقوم بتفجير حفلة عرس لا يعرف فيها العريس ولا العروس ولا احد من اقرباءهم وليس بينه وبينهم عداء سوى انه من طائفة أخرى، او نتسامح مع مجرم يزرع عبوة ناسفة في سوق شعبي ليس فيه سياسي ولا احد من الأثرياء ولا حتى شرطي، سوى ان أغلبية رواده من طائفة أخرى. يمكن للفرد ان يتنازل عن حقه في القصاص من مجرم الحق به أذى او باحد افراد عائلته، ولكن عندما يتعلق الامر بالمجتمع وامنه واستقراره فلن يكون للتسامح موضعا.

مشكلة العراق الأمنية والدينية والطائفية والأخلاقية والقيمية لا علاقة لها بالافراد، فالناس كانوا حتى وقت قريب يأكلون في صحن واحد وينامون على وسادة واحدة ويشاركون بعضهم الفرح والحزن ويتقاسمون رغيف الخبز. مشكلة العراق سياسية دينية منفعية، ولذلك عندما نتحدث عن التسامح فان السؤال من يتسامح مع من؟

في أوج الازمة الطائفية والاحتراب على اشده رأيت سنيا يذبح خروفا على عتبة بيت جاره الشيعي مهنئا بعودة ابنه سالما من عملية جراحية، ورأيت شيعيا يقف مع جاره السني لاستقبال المهنئين بزواج ابنه وكانه احد افراد اسرته، هل يحتاج مثل هؤلاء للتسامح او التصالح، الخراب الذي حل بالعراق جاء مع الغرباء واولاد الغرباء وأصدقاء الغرباء، ثم دخل سم الشيطان بين الأخوة واغرقهم في بحر من الدم، سم الشيطان هو المال والمخابرات الدولية والخونة من بعض ابناء جلدتنا الذين جاءوا بتجار الدماء من دول الجوار وما وراء دول الجوار من الذين لهم مصلحة في بقاء العراق منهوبا محروقا مجروحا.

التفجيرات التي تلصق بثوب العروس، والعبوات التي توضع تحت دكة بائعة خضارفي سوق شعبي وعصابات الخطف والسلب والنهب وراءها سياسيون وتجار يتاجرون بأرواح الناس ومدخرت الناس وأحلام الناس من كل الطوائف وليس شيعة او سنة، فمن يتصالح او يتسامح مع من؟

جسر الفلوجة لايعبر عليه ابن الناصرية لان ابن الناصرية لديه جسر في الناصرية، ولكن يعبر عليه ابن الفلوجة والخالدية والرمادي، وابن الفلوجة لايجروء على

تفجير الجسر لانه ملكه وملك ابنه من بعده، هل رأيتم احدا يفجر ملكه؟، جسر الفلوجة اذن لم يفجره ابن البغدادي او ابن الرمادي لانه الدرب الوحيد الذي يوصله الى بيته ، هناك أيدي خفية سياسية ودينية ومخابراتية تعمل في الخفاء لابقاء شحنات البغضاء بين الاهل باختصار شديد، التسامح لغة عاجزة في قاموس الدين السياسي، لغة غامضة غير مفهومة، قاصرة، لان اطرافها لاتنتمي للمجتمع الذي تعود التعايش والتكافل لاكثر من الف عام، التسامح لا يحدث ابدا ما لم يتخلص المجتمع من جرثومة التحزب والتخندق والتمترس التي يحملها المنتفعين من التقسيم على اساس الطوائف

سادساً: التسامح وبناء الدولة

يقول ماكس فيبر ان الدولة مؤسسة اجتماعية تمسك بزمام القوة وتناور باستخدامها، بهذا المعنى تعرف الدولة من خلال سلطتها، وهي مثل أي مؤسسة اجتماعية اخرى ترتكزعلى مجموعة من الوظائف، بضمنها المحافظة على القانون والنظام، والاستقرار، وتقوم بحل النزاعات على اختلافها من خلال النظام الشرعي **legal system** ، تقوم بالدفاع المشترك، وتعمل على رفاهية الناس بطريقة خارج تصور الفرد، من خلال توفير العناية الصحية العامة والتعليم الشامل والانفاق على البحث العلمي[١٤] . هذه ربما هي الحكومة لان الدولة وعاء لمكونات اخرى معها، كالارض والناس. فاذا اردنا ان نحتكم لتعريف ماكس فيبر في استعراض وظائف الدولة العراقية المعاصرةهل هي:

- مؤسسة اجتماعية: نعم
- لديها مجموعة من الوظائف: نعم
- تحافظ على القانون والنظام: لا
- الاستقرار: لا
- حل النزاعات على اختلافها من خلال نظام شرعي: لا
- الدفاع المشترك: لا

---

[14] **Johnson A G, (1995), the Blackwell Dictionary of Sociology, Oxford, Blackwell Publishers Ltd, P.18.**

- توفير العناية الصحية العامة: لا
- ترعى التعليم الشامل: لا
- الانفاق على البحث العلمي: لا

ان مهمة هذا البحث المتواضع لا يحتمل مناقشة كل فقرة من هذه فقرات ، لكن يمكن القول اختصارا ان الدولة العراقية في ضوء هذه المعايير ليس لها غير الاسم " مؤسسة اجتماعية فقط، بدون وظائف" ، اعترف ان لها وظيفة مهمة لم يذكرها ماكس فيبر هي الانفاق على اكثر من ستة الاف مشروع وهمي، ضاعت بسببها مدخرات العراق، وربما نتجه نحو مرحلة يباع فيها العراق كله ارضا وشعبا وثروات بالمزاد العلني.

اذن كيف يمكن للتسامح ان ياخذ سبيله للاطراف المتناحرة اذا كانت الدولة ترعى اللصوص وتتستر عليهم، وتعطي لكل عضو من اعضائها امتيازات خمسين ملكا وخمسين امبراطورا، وتغض الطرف عن الفاسدين والمرتشين والمتاجرين بارواح الناس، كيف ياخذ التسامح طريقه والدولة لم تبني مشفا ولا مدرسة ولا جسرا ،لم تبلط شارعا ولم تبني منزلا، ولم تصلح طريقا ولا مصنعا ولا مزرعة، حتى الماء صرنا نستورده من دول الجوار.

اذا استصلحت ارض الدولة المالحة من الشوائب ، واهم الشوائب المحاصصة، والفساد، وسوء الادارة ، وحل القانون محل الفوضى ، والنظام الشرعي محل العشيرة ، والجيش والشرطة محل العصابات ، والطبيب محل العراف والمهندس محل السمكري، ورجل القانون محل البقال، واعادة رجال الدين الى ثكناتهم، والمجرمين الى زنزاناتهم وسراق المال العام الى مخابئهم السرية، فاننا سنمشي جميعا باديياننا وطوائفنا واعراقنا في جنازة الكراهية، وسيجد التسامح طريقا سهلا تمشي فيه الاطراف المتناحرة كلها باتجاه واحد، والا فان كل جهد يبذل سيذهب مع غبار اخر معارك الكراهية.

خلاصة

يقول جعفر بن محمد الصادق "لأن اندم على العفو خير الف مرة من اندم على العقوبة"[١٥]، انها دعوة مباشرة ، صريحة وبليغة للتسامح، ويقول عمر ابن الخطاب "لأن عثرت عنزة في جبل او سهل في بلاد المسلمين سيحاسبني الله عليها" وهي الأخرى دعوة صريحة بليغة لان يرعى الحاكم مصالح رعيته وهي تشمل حتى البهائم ، هذه هي مكارم اخلاق السلف الذين نختلف بسببهم، نتصارع كالديوك دون منتصر او مهزوم لاننا نقرأ اثار السلف من زاوية أحادية البعد، هذا لمن يقرأون، والغالبية العظمى تبني أحكاما على السماع ، والذين يستحوذون على اذان الناس يسممون آذانهم وابدانهم بحكايات مزعومة هي اقرب للوهم فيصدقها البسطاء والجهلة وينساقون وراءها انسياقا اعمى.

لا يندم الصادق عن العفو ولكنه يندم على العقوبة، والعقوبة في العراق تأخذ شكل عبوة ناسفة تلف بثوب عروس، او عربة بائع متجول، او دكة امراة عجوز تبيع الخضار، وتأخذ شكل سيارة مفخخة في سوق شعبي، واختطاف عالم من باب الجامعة، وتسليب طبيب لانه يعالج الناس بمهنية عالية.

ويخاف عمر من عثرة عنزة لانه يعرف انه مسؤول عن تمهيد الطريق للناس ولبهائم الناس في بلاد المسلمين، والدولة في العراق تحفر الخنادق وتنبش الشوارع وتضع الحواجز الكونكريتية في طريق الناس.

لكي نتسامح يجب ان نتعلم من جعفر حب العفو، ومن عمر الشعور بالمسؤولية ونبدأ من اعلى الهرم، الاعلى فالاعلى. وعندها فقط تحل المحبة بدل الكراهية والحدائق بدل الحرائق والمدارس بدل المدافن وعندها أيضا لا نحتاج أبحاث انثروبولوجية عن التسامح .

---

[١٥] الحافظ ابي عمر يوسف بن عبد الله، ادب المجالسة وحمد اللسان، تحقيق ودراسة، سمير حلبي، دار الصحابة للتراث، ص١١٦.

الملخص

هذه الورقة محاولة لمناقشة مفهوم التسامح من وجهة نظر علم الاجتماع والانثروبولوجيا السياسية. النقطة الأساسية هي كيف يمكن تحقيق مصالحة حقيقية بين الأطراف العراقية المتصارعة، التي تورطت في العنف والكراهية والطائفية والتناحر الديني، التي قادت الى تشرذم البناء الكلي للمجتمع. التسامح غير قابل للتطبيق ما لم يتم التخلص من السياسيين الخونة، ومن مشاعر مقاومة فكرة الفناء التي سيطرت على تفكير وسلوك الأطراف المتنازعة، وكذلك التخلص من المتاجرين بأرواح العراقيين ومدخراتهم ومستقبلهم. والخلاصة ان الأمم لا تبنى مع الكراهية والتحزب الطائفي والتشرذم، والتسامح من هنا يحتاج الى مناخ ملائم والا فان كل الجهود ستذهب سدى.

Abstract

This paper is an attempt to discuss the concept of tolerance from the viewpoint of sociology and political anthropology. The main point is how can we achieve conciliation between Iraqi fractions who involve in violence, hatred, sectarianism and religious controversy, which leads to segmentation of the whole structure of society. Tolerance could not be applicable unless we get rid of the traitor politicians, the feeling of resistance to Illumination, which dominate the thinking of rivals, and leaders who manipulate Iraqi human life, their assets and their future. The conclusion is that the nations can't be rebuilt with hatred, segmentation and sectarian alliance, thus tolerance needs a suitable climate to take place otherwise all efforts could go with dust.